الأمة الإسلامية وقضاياها الاستراتيجية[1]

د.طه جابر العلواني[2]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد خاتم النبين وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين وبعد ... فإنني أود أن أجمل ما أريد قوله في نقاط:

النقطة الأولى:

لعل –في البداية– تحديد مفهوم الأمة في لغتنا العربية، وتوضيح منهج الشارع الحكيم فى التعامل مع هذه اللغة وتوظيفها للتعبير عن مفاهيمه، ومفهوم (الأمة) يتضمن مجموعة أوامر قد تبدو لأول وهلة مفاهيم مستقلة أو متمايزة، لكنها –عند النظر– لا تنفصل عن بناء هذا المفهوم الشرعي بحال. فوحدة الأمة واستقلالها، ونهضتها، وعمرانها، وشهودها الحضاري، وقوتها، وولاؤها للإيمان وأهله، وبراؤها من الظلم وأهله، كل تلك الأمور تعتبر مضمنة في مفهوم (الأمة) بمعناه الإصطلاحي، الذي استعمله في الشارع الحكيم –تبارك وتعالى.

كما ترتبط بهذا المفهوم مجموعة كبيرة أخرى من المفاهيم ذات البعد الإسلامي العميق كالأمانة، والاستخلاف، والشهود الحضاري، والخيرية، والوسطية والابتلاء ، والإعمار والعمران والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير، والإيمان بالله أولا وأخيرا وعدم الإشراك به، والإيمان بسائر أنبيائه ورسله، إلى غير ذلك من شعب الإيمان والإسلام والإحسان، ويوم تفقد الأمة عنصرا من هذه العناصر تفقد كونها أمة فهي إن تخلت عن الحكم بما أنزل الله من قيم التوحيد والتزكية والعمران، وما تفرع عنها من قيم العدل، والأمانه والحرية والمساواة.

---

[1] ألقيت هذه المحاضرة يوم السبت ٢٩\١٢\١٩٩٠.

[2] من مواليد ١٩٥٣ بالفلوجة في العراق، رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن، عالم موجه إسلامي أصيل، تمتد اهتماماته في أصول الفقه إلى قضايا الفكر الإسلامي وله مؤلفات بذلك.

كذلك لو بعدت عن وحدتها، أو تنازلت عن ولائها وبرائها، أو نأت عن دورها ووسطيتها وعن قيامها بمهمة الشهود الحضاري، فقدت الأهلية لأن تتصف بأنها أمة بالمفهوم الشرعي حتى لو احتفظت بلقب (أمة) بالمفهوم اللغوي الجامد.

النقطة الثانية:

موقع هذه الأمة من الأمم –في نظري- كموقع رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- منها. فموقعها من الأمم هو موقع الشهادة والخيرية والتزكية والتعليم والقيادة. ولا ينبغي أن يغيب هذا عن البال. وموقع رسول الله –ﷺ- من الأمة موقع الشاهد عليها والمعلم لها والمربي والمزكي والمطهر لنفوسها وقلوبها، وهو في الوقت نفسه رؤوف ورحيم بنا وبها.

وموقع أمتنا من سائر أمم الدنيا نفس هذا الموقع بالضبط فهي الشاهد على الناس والمعلمة والمربية والمزكية للأمم والرؤوفة الرحيمة بها، تجعل من نفسها نموذجا ومثالا يدعوها إلى الخير ويأمرها بالمعروف ويعززه فيها، وينهاها عن المنكر ويضعفه فيها. وكل ما يقتضيه قيامها بهذا الدور واجب من واجباتها وفريضة من فرائض الله تعالى عليها.

النقطة الثالثة:

كتاب هذه الأمة الكريم القرآن العظيم يمثل الإعجاز المطلق، المتحدي للبشر على الدوام أن يأتوا بمثله كلا أو جزءًا وسنة رسول الله –ﷺ- ممثلة ومجسدة لقيمه في الواقع وموضحة شارحة، فهي ممثلة لأفضل أحكام قواعد تنزيل هذا الكتاب على الواقع المعاش في وقت رسول الله –ﷺ- وعلى الدنيا كلها بعد ذلك أن تتأسى بهذه السنة ومنهجها في تنزيل مطلق الكتاب على الواقع النسبي، وأن تتمثلها في خطواتها كلها. وبالتالي فإن مقومات بناء هذه الأمة وقواعدها وخصائصها تمثل قبسات من تلك الخاصية المطلقة للنبوة والرسالة التي يمثلها رسول الله –ﷺ- ... كما تمثل نفحات من ذلك الإعجاز المطلق الذي يتمثل في القرآن العظيم، فلا يمكن إعادة بنائها حين تهدم ولا يمكن أن تستحيي هذه الأمة حين تغشاها عوامل الموت بغير ذلك المنهج الإلهي (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به

أولها)[٣]، كما أن تلك المقومات والخصائص التي بنيت هذه الأمة عليها لا تقبل زيادة بشرية ولا نقصانا إنسانيا، كما لا يتقبل التصور الإسلامي شيئا من ذلك.

وحين يحمل مفهوم (الأمة) بتلك الخصائص العرقية والإقليمية التي يضعها البشر، بحيث تطغى على خصائص العالمية والشمول فيها أو تختزل فيها تلك الخصائص، أو تغير مفهوم الشامل أي تغيير جزئي أو كلي، فإن ذلك يشكل أعرافا لا تقبلها طبيعة هذه الأمة وقد تخرج عن كونها أمة مسلمة لله، مخرجه نموذجا وأسوة لعباده. وبالقوة نفسها يأبى مفهوم (الأمة) الفرقة التمزق والتنازع والتحارب، فذلك –كله- يعد من ضعف الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، وضعف البراء من أعداء الله ورسوله والمؤمنين، ويأبى مفهوم الأمة كذلك بمفهومه الشرعي قبول أي شكل من أشكال الذلة والضعف ﴿... **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ...﴾ (**المنافقون:٨**) ويأبى الجهل المطبق بكل أنواعه من أمور الدنيا والدين. كما يأبى المرض أو الضعف بكل أنواعه وبكل مفاهيمه، لأن هذه (الأمة) كما قلنا تدور لها دور وموقع لا يمكن أن تؤديه إلا وهي متمثلة بكل خصائص القوة والقدرة والفاعلية وتجاوز العجز. ويأبى مفهوم (الأمة) كذلك الظلم والطغيان بكل أشكاله، والاستبداد بكل دركاته فإذا وقع شيء من ذلك كان التصحيح بكل أنواعه واجبا لتقويم الجبهة الداخلية أو تقدمها، واحتلت البيئة الداخلية وإصلاحها الأولوية الأولى على سائر الفرائض والواجبات. وتحولت فروض الأمة أو فروض الكفايات إلى واجبات أعيان وفروض شخصية عينية على الشخصية الفردية كما هي واجبة على الشخصية المعنوية حتى تسترد الأمة عافيتها ووحدتها، وتبدأ هذه الفروض التي هي فروض مقاومة الأمة لعوامل فرقتها وتميزها بالعزة والرفض القلبي تؤتي ثمارها في التصحيح والتجديد. ولا بد لأبناء الأمة أن يتعلموا الرفض العقلي الواقعي الواعي لمظاهر الانحراف كافة ثم استعمال وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة والتوعية بكل أنواعها وأمضى أشكالها لتنبيه وإيقاظ النائمين، وتحذير المغترين وتنقية وتطهير صفوف (الأمة) من المنافقين أو المشركين أو المندسين أو المخربين، وتمحيصها وتهيئتها للقيام بفرائض

---

[٣] كلمة للإمام مالك بن أنس.

التعديل، وإرغام قوى الانحراف على قبول ذلك التعديل إن لم تجد كل الوسائل الأخرى ثم إحاطة تلك المقومات بكل وسائل الحفظ والحماية اللازمة وفي مقدمتها (الشورى) وحفظ كرامة الإنسان وحقوقه ضرورية كانت أو حاجية أو تحسينية، وإقامة ركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل مؤسسي يحول دون توقفه أو قصوره عن أداء دوره لكي لا يتكرر الانحراف في الأمة أو يعود إلى الظهور ثانية.

ومن المؤسف أن الوعي الموضوعي على هذا المفهوم (بالأمة) بالشكل الذي ذكرناه قد أصابه كثير من عوامل الإضعاف في الماضي نتيجة خلل في فهم بعض حلقات منهج التصور الإسلامي، حدث في أعقاب إنقلاب قبائلي سريع على الخلافة النبوية التي حولت بشكل قسري إلى ملك عضوض، وانفصل السلطان عن القرآن، وصار العلماء المجتهدون وقادة الفكر في جانب، وأصحاب السلطان في جانب آخر، وأصبح الصراع على الشرعية والمشروعية بين الفريقين السمة الغالبة للعلاقة بينهما. ولم يقف التدهور عند هذا الحد بل تجاوزه خلال عقود قليلة إلى نوع من الجبرية والتسلط وإهدار الشورى وتحويل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى عمل فردي وتجاوز الناس تحذيرات رسول الله -ﷺ- المستقبلية ولم يلتفتوا إليها ومن هذه التحذيرات قوله (لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة أولها الحكم آخرها الصلاة) وقوله (ألا وإن القرآن والسلطان سيفترقان ألا فكونوا مع القرآن حيث كان). وإذا تأخرت الأمة في إعادة بناء العروة التي انتقضت وهي (الحكم) ولم تتمكن من إعادة الخلافة الحقيقية على منهاج النبوة، ورضيت بالشكل وغفلت عن المضمون كان لا بد أن يتتابع انتقاض العرى حتى يضيع قوة الصلاة.

وفي غمرة الصراع المرير على الشرعية بين القيادة الفكرية والفقهية والسياسية، تعرض العقل المسلم لجملة كبيرة من التغيرات والبدع والحادثات، والانحرافات الفكرية في النظر إلى الإنسان والكون والسلطة والحياة الدنيا والدين والأسباب والسنن وغير ذلك.

فاختلطت في رؤية الأدوار بين عالمي الغيب والشهادة وقضاياهما، وافتعل نزاع مزعوم بين الوحي والعقل واضطرب فهم المسلم بين الإرادة الإنسانية والعقل الإنساني وبين الإرادة الإلهية والفعل الإلهي، لتنشأ عقيدة الجبر والقدر كما اضطربت صورتا الدنيا والآخرة. وتغير

فهم الإنسان المسلم لحقيقة الإنسان ودوره في الحياة، ودب التغير إلى كثير من عناصر منظومة العقل المسلم الفكرية، واحتلت المفاهيم الفلسفية المستوردة بكل أنواعها ومختلف أشكالها محل المفاهيم الإسلامية، واقتنع الناس من الإسلام بأشكاله، فساد النظر الجزئي والقياس السطحي والاتجاه الشكلي وأسيء فهم كثير من أحاديث رسول الله –ﷺ– وسننه. كما دس الكثير عليه –عليه الصلاة والسلام– كما دخل في التفسير والتأويل مداخل كثيرا ما حجبت من أنوار الكتاب الكريم وصادرت على فهمه، وافترقت كلمة الأمة وتحولت إلى طوائف وأحزاب وفرق يلعن بعضها بعضا، ويكفر أو يفسق أو يبدع كل منها الآخر بتهم عقيدية أو فقهية، واستمرت الأمة بالتمزق، وجاء الفهم المنحرف لسنة رسول الله ليحول الفرقة إلى حتمية تاريخية بناء على الحديث المتداول (افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي إلى ثلاثة وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة ما عليه أنا وأصحابي)[٤] فلعل ما قصده الرسول –ﷺ– إن كان قد قال أو ما في معناه هو التحذير من الفرقة والتخويف منها، وتنبه الأمة إلى اتخاذ سائر أسباب الحذر والحيطة من الوقوع في مستنقع الفرقة. ولكن الحديث فهم على أنه قدر حتمي لابد من تحقيقه مع أن آخر الحديث ينبه بوضوح إلى وجوب وحدة الأمة والتحذير من فرقتها أو السماح بظهور أسبابها حيث قال –ﷺ: (كلها هالكة إلا واحدة، ما كان عليه أنا وأصحابي). وبدلا من أن يتجه البحث إلى تأصيل منهج رسول الله وأصحابه، ويشاع بين المسلمين ليتمسكوا به في بناء وحدتهم واحتواء واستيعاب عوامل اختلافهم لينجو بذلك من الفرقة، أخذت كل فرقة أو مذهب تؤصل لقضاياها الخاصة والخلافية وتعتبر نفسها هي الفرقة الناجية لتزيد في فرقة الأمة وبث أسباب الصراع والتباغض والتنابذ بين فصائلها. ومن الطبيعي أن تتراجع الأمة عن دورها وقد ابتليت بكل هذه الأمراض وأن تفقد وحدتها وأن تجتمع عليها الأمم وتتداعى

---

[٤] انظر سنن ابن ماجة تحقيق الدكتور مُحَمَّد مصطفى الأعظمي –باب افتراق الأمم. الجزء الثاني ص ٣٧٧ (قال البصيري في الزوائد ٢٤٣ –أ: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، رواه أحمد في مسنده. قلت: وقد قام أحد علماء اليمن بدراسة هذا الحديث سندا ومتنا فخرج بنتيجة تلك الدراسة بأن الحديث ضعيف لا يصلح للاستدلال به على شيء. وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة (المسار) كما نشرها مركز البحوث والدراسات.

لتنقض عليها، لتهزم أمام الصليبيين. وقبل أن تسترد أنفاسها من ضغط الحروب الصليبية داهمها التتار، فأصابوا منها ما أصابوا ولم تسترد عافيتها إلا في القرن الثامن الهجري على أيدي آل عثمان فتوحدت ديارها مرة أخرى، لكن المشكلات الفكرية ظلت جذورها وجراثيمها حية قادرة على الفتك بها عند أول بادرة ضعف تبدو عليها، لأن الدولة كانت تنشغل على الدوام بتوطيد الحكم ومقاومة الأعداء والاقتصار على الجانب القضائي الفقهي من الإسلام وما يمكن تسميته بالجانب المدني أو ما يسمى في أيامنا هذه بالقانون المدني وإخضاعهما أي الجانب القضائي والمدني للأحكام الفقهية المستمدة من الأصول الشرعية. فيكون ذلك هو نصيبها من الإسلام، ومبلغها من العلم به وبمصدره الموحى.

أما الجانب السياسي فقد بقي بعيدا عن الإسلام، مخالفا لمنهاج النبوة. وكذلك الجانب الفكري فلم تعد الأمة بناء المنظومة الفكرية، ليعود العقل المسلم إلى تألقه وفاعليته منطلقا بالتصور الإسلامي السليم في عملية البناء الحضاري، وبقيت حية سائر أخطار مفاهيم الجبر والقدر، والصراع بين النص والعقل، وإهدار قيمة الفعل الإنساني، وإرادة الإنسان، وإهمال دور الأسباب، واختلال النظر إلى الإنسان والكون والحياة، والاهتمام بالأشكال الفقهية عن الأهداف والمقاصد الشرعية، وقبول الأمر الواقع بسلبية المستسلم بدلا من إيجابية المناضل المجاهد، بل لقد تم تأصيل بعض المفاهيم الخاطئة، فبإسم الاحتياط وسد الذرائع أخضع الناس للجبابرة وباسم الإجماع السكوتي استبد الطغاة وادعو تمثيل الأمة الساكتة أو المسكتة بالقوة. وباسم الخوف من أخطاء الاجتهاد رسخ التقليد في كل شيء. وبسم الخوف على وحدة الأمة طولب بقبول إمامة الجور والجبر وأعلنت شرعية أحكام الجائرين والمتجبرين والمستبدين، ودمر الفقه الفكري، والفقه السياسي، وفقه بناء الأمة، والفقه الأصولي والمنهجي، لحساب النمو السرطاني للجدل الكلامي، والفقه التعبدي، والفرعي، والجزئي، فكان من الطبيعي أن تعود الأمة إلى التراجع من جديد بعد أن يخبو بريق الانتصارات العسكرية. لذلك فإن فتوحات الدولة العثمانية وغلبتها العسكرية لم تستمر إلا بضعة عقود من السنين لتبدأ دورة تراجع جديد انتهت بتمزق الأمة الكامل وانهيار آخر رمز

سياسي لوحدتها التي لم تكن كاملة وذلك في أعقاب الحرب العالمية الأولى في مارس ١٩٢٤[٥].

وقبل ذلك كانت بعض أجزاء الأمة تعاني، وبعده كانت أجزاء أخرى تعاني من فقدان استقلالها، وتمزق وحدتها وتخلفها وعجزها عن دركات متفاوتة، لكن من أهم خصائص هذه الأمة أنها لا تفقد ارتباطها بدينها كلية، فمهما كثرت الانحرافات وتنوعت الاتجاهات تبقى طائفة منها على الحق ظاهر، قلت أو كثرت لا يضرها من خالفها. وفي ضمير هذه الطائفة تستقر قضاياها الكبرى مثل وحدة الأم، وشهودها، ووسطيتها، وعدالتها، وغير ذلك من صفاتها، فهذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا تجتمع على خطأ على الإطلاق، ولا تضمحل قيمتها، ولا تنتقض سائر عراها تماما، بل تبقى طائفة منها ظاهرة على الحق مهما كلف الأمر.

ولذلك فإن كثير من المصلحين نادوا بوجوب إصلاح فكر الأمة وعقيدتها ومناهج ونظم حياتها، ومن أواخر تلك الأصوات التي سبقت انهيار سلطنة آل عثمان ولم تفلح في إنقاذها، كان صوت أولئك العلماء الذين حاولوا في بلاد إسلامية كثيرة أن يفعلوا شيئا فلم يفلحوا، ومنهم السيد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ/١٨٣٨-١٨٩٧م) وغيره ممن ندوا بالاستبداد السياسي وكشفوا عن عواقبه الوخيمة ودعوا إلى وحدة المسلمين وإصلاح نظامهم السياسي ومعالجة أزمتهم الفكرية، وبين يدي الآن بعض مقالات السيد جمال الدين الأفغاني أرجو أن لا تملوا من أن تستمعوا إلى فقرات منها لتروا ما إذا كانت أمتنا قد تقدمت أو تدهورت بعد عشر سنوات ومائة سنة!!. كانت هناك جريدة في باريس أسمها (أبو نظارة زرقاء) كتب فيها السيد مقالة بعنوان (الشرق والشرقيون) علم ١٣٠٠هـ، صدرها بمقدمة طويلة تحدث فيها عن الإنسان وكرامته وعن عقله وأهميته، وأهمية استخدام الإنسان عقله، كما تحدث عن النفس الإنسانية، وشرف الإنسانية وكرامتها، وكيف كرمه الله -سبحانه وتعالى- على سائر المخلوقات فكأنه يمهد ويوضح انعكاسات الأزمة الفكرية على

---

[٥] هذا اليوم لو وقع لدى أية أمة لاتخذته يوم حداد عام ليذكرها بوحدتها الغائبة جيلا بعد جيل، وما جرته عليه مشكلات التمزق والفرقة من مصائب وويلات.

الأمة الإسلامية، ثم قال بعد ذلك: "إن الشرق بعد أن كان له من الجاه الرفيع سقط عن مكانته، واستولى الفقر والفاقة على ساكنيه، وما غلب الذل والاستكانة على عامريه ولا تسلطت عليه الأجانب ولا استبدت بأهله الأباعد، إلا لإعراض الشرقيين عن الاستنارة بعقولهم، وتطرق الفساد إلى أخلاقهم. فإنك تراهم في سيرهم كالبهائم لا يتدبرون أمرا ولا يتقوا في أعمالهم شرا، وعميت أبصارهم عن إدراك النوازل التي أطاحت بهم، يقتحمون المهالك ويمشون المداحض، ويسرعون في ظلمات هوتها نفوسهم ونشأت عن أوهامهم المضلة، ويتبعون في مسالكهم ظنونا قادتهم إليها فساد طبائعهم، لا يحسون المصائب قبل أن تقصم أجسادهم، وينسونها كالبهيمة بعد زوال آلامها، واندمال جراحها، ولا يشعرون – لاستيلاء الغباوة على عقولهم وسيطرة ظلمات غشاوة الجهل على بصائرهم- باللذائذ التي خص الإنسان بها من حب الفخار، من طلب المجد والعزة، وابتغاء حسن الصيت، وبقاء الذكر، بل لاستيلاء الغفلة على عقولهم. يحسبون أن يومهم الذي هم فيه هو كالسارحة، هكذا شأنهم لا يدرون عواقب ولا يدركون مآل أمرهم، ولا يحذرون ما يتربص بهم عن أمامهم ومن خلفهم، ولا يفقهون ما يضمره الدهر لهم من الشدائد، لذلك تراهم قد رأوا الذل، وألفوا الصغار، وأنسوا الهوان، وانقادوا للعبودية، ونسوا ما كان لهم من المجد المؤتل، والمقام الأمثل. لقد انهمكوا في الشهوات الدنيوية، وغاصوا في اللذات البدنية، وتخلقوا بالأخلاق البهيمية، وتوسدوا الكسل والفشل، واتصفوا بصفات الحيوانات الضارية، ويخيسون بعهودهم، ويسعدون في خرائب بلادهم، ويمكنون الأجانب من ديارهم، لا يحمون غمارا، ولا يخشون عارا، عالمهم جاهل، وأميرهم ظالم، وقاضيهم خائن، ليس فيهم هاد يرشدهم إلى سبيل النجاة.." ، ثم تعرض في صفحات عديدة إلى الخيانات بين الدول والحكومات التي كانت قائمة تلك الفترة فيقول: "إن العثمانين اتفقوا مع الروس على اقتسام بلاد إيران!! حين تغلب الأفغانيون على أصفهان أيام الشاة سلطان حسين، ولو نظروا بمنظار التدب إلى الأمة الروسية ومالها من العلاقات مع اليونان والرومان وغيرهم من رعايا السلطنة العثمانية، وما يمكن أن تحوز في مستقبل أمرهم من القوة والبسطة ما اختلج في بالهم مخالفتها ولا خطر في أذهانهم مؤامرتها" ويستمر السيد الأفغاني موضحا: كيف كان حكام تلك الفترة وما قبلها

يتحالفون مع قوى عظمى وهم في غفلة من نتائج هذه التحالفات فيقول :"ذهل العثمانيون تهاونا منهم عن العلاقات التامة التي كانت بينهم وبين الهنود، وأن سلطنتهم لو امتدت إلى تلك الممالك لدخل جميع حكامها بلا معاوضة تحت لوائهم وقدروا على قلع الحكومة الإنجليزية في الهند، وسدوا عليها طريق فتوحاتها في الشرق، وشاه إيران فتح بلاده إلى الإنجليز إرضاء للإنجليز. وهدد الأفغان بالحرب"أهـ.

ونترك مصائب عصر السيد الأفغاني، وما ذكره من مآسي تلك الفترة، ولكن المنكي المبكي أنك حين تقرأها اليوم فكأنك تقرأ حال الأمة في أيامنا هذه، من حيث الخلق، والسلوك، والعلاقات بين الحكام والمحكومين والأحزاب والجماعات والأفراد: مائة وعشر سنوات مضت وحال الأمة تسير من سوء إلى أسوء فأين نحن الآن؟

النقطة الرابعة:

أدبياتنا السابقة خلال الفترة الماضية التي تفصل بين عصر الأفغاني وعصرنا ماذا نجد فيها؟ نجد فيها أهم القضايا المطروحة كان علماؤنا وكتابنا ومفكرونا يعالجونها.

-الوحدة الإسلامية أو العربية بين الشعوب العربية على مستوى المنطقة العربية.

-الوحدة الإسلامية أو العربية الشاملة أو الجزئية في مقابل التجزئة.

-العدل الاجتماعي أو النظام الاقتصادي أو اللاربوي الإسلامي أو الاشتراكية كما يسمونها في مواجهة الاستغلال أو التفاوت الاقتصادي والنظم الاقتصادية الغربية.

-الهوية والأصالة في مواجهة قضية التغريب والعلمنة.

-الاستقلال والتحرر ومقاومة الاستعمار بكل أشكاله المختلفة.

-التقدم والنهضة والمعاصرة في مواجهة التخلف والتراث وأعبائه.

-ثم أخيرا قضية فلسطين وتحريرها وهل هي مهمة فلسطينية عربية أو إسلامية.

إن عامة كتابنا ومفكرينا وصحافتنا خلال العقود الماضية، كانت هذه الموضوعات تمثل موضوعاتهم الأساسية، وقضاياهم الرئيسية، وكل المشاريع التي صيغت من أجلها، وحولها دارت برامج أحزابنا وفئاتنا والانقلابين العسكريين والحزبيين الملكيين السلطانيين والخلافيين

والإسلاميين وغير الإسلاميين، كل هؤلاء كانت هذه القضايا تشكل المشاريع الأساسية التي تدور حولها جهودهم ويحاولون أن يقدموا رؤيتهم فيها بشكل أو بآخر.

والبيان رقم (١) في كل انقلاب يقع، يشجب الانقلابيون الحكومة السابقة التي قضي عليها، ويصفونها بأنها كانت ضد الوحدة أو ضد الحرية والديمقراطية أو ضد العدالة الاجتماعية أو بالاستبداد والظلم والاستعباد ومصادرة الحريات ليأتي الآخر بنفس الشكل والمضمون، ولكن دون تغيير واقعي.

إن السؤال العتيد الذي كان السيد جمال الدين الأفغاني ومن سبقه يرددونه كثيرا هو : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ وأطروحاتهم كلها كانت تدور تقريبا حول ذلك، حين نلاحظ هذه الأهداف –اليوم- ماذا نجد؟ أين نحن منها؟ بغض النظر عن منطلقات تحقيقها! بغض النظر عن الجماعات واختلافها والأحزاب وبرامجها، فإننا نجد إجماعا أو اتفاقا على الأقل بين المفكرين على اختلاف اتجاهاتهم، على أن حصاد العقود الماضية في هذا المجال كان ضعيفا جدا بكل المقاييس لولا أن ديننا يدعو إلى التفاؤل لقلنا: إنه يدعو إلى اليأس ولكن ﴿ ... **إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ...﴾ **(يوسف:٨٧)**.

حينما نادى الغربيون بأن هناك صحوة إسلامية، وهم كانوا يتخوفون من أن هذا المارد الذي قضوا عليه (الأمة الإسلامية) حين اقتسموا سلطنة آل عثمان، وفرضوا اتفاقية (سايكس-بيكو) تلك الاتفاقية التي بمقتضاها أقاموا تلك الدويلات –التي تتوزع الآن ولاءنا ومقدراتنا- وأوجدا تلك الحوجز والحدود والأوطان التي نتقاتل على ترابها الذي يصرخ بوحدتنا، كان الغربيون يظنون أن هذه الأمة الإسلامية لن تتحرك مرة أخرى باتجاه التوحيد. فحينما رأوا بعض البوادر –وهم أهل حزم وعقل ونظر مستقبلي ليسوا مثلنا- حين رأوا أن نوبة التدين العالمية قد مرت ببلادنا وكثر المنادون بالعودة إلى الإسلام في صفوفنا تنادوا بالنذر وأطلقوا أن هناك صحوة إسلامية في هذا العالم فأعدوا لها العدة، فسارعنا في ترديد ما قالوا وظننا أن هناك صحوة إسلامية حقيقية فعلا، وأننا على مقربة من تحقيق الشهود الحضاري أو العالمية الإسلامية الثانية. فالحضارة الغربية ساقطة منهارة أو آيلة إلى السقوط، والشيوعية سقطت، فمن الموجود غيرنا؟ نسينا أن هناك اليهود يعدون أنفسهم لهذا الدور، ونسينا

اليابان، وأوروبا التي خرجت من الحروب فورا وبدأت تبحث عن الطريق الذي توحد فيه نفسها وتجعل من نفسها دولة واحدة. في سياستها، وفي اقتصادها، في كل شيء وها هي قد قاربت تحقيق ذلك. نسينا كل هؤلاء المنافسين الخطرين ونسينا مؤهلاتهم وتوهمنا أن مجرد حمل اسم الإسلام يؤهلنا لهذا الدور بين هذه (الدول) الست والأربعين (المزق) التي أصبحت موضع السخرية في العالم كله. الدول التي لا تستطيع معظمها أن تقطع أمرا دون أعدائها، الدول التي يوجهها أعدائها في كل شيء حتى في حتفها! واستطاب الكثيرون من أن يعتبروا المسلمين –بوضعهم هذا– المرشح الوحيد لقيادة العالم. أي مؤهل لتحمله لهذا؟ وقد تخلينا عن ديننا وخيريتنا ووحدتنا، ووسطيتنا، ولم نعد إلا غثاء كما قال –عليه الصلاة والسلام– (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها. قلنا أو من قلة نحن يومذاك يا رسول الله! قال: لا بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب عدوكم منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، قلنا وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)[٦]. هذا الحديث الشريف يصف حالة الغثائية فالغثاء الذي يجرفه السيل مجموعة متنافرة من جيف، وأخشاب، وأمور مهملة لا تستطيع أن تحقق بها شيئا ولا تستطيع أن تحقق بها أي مهمة كانت. فهذه الغثائية هي الحالة التي نحياها الآن.

النقطة السادسة:

أيها الأخوة والأخوات..

هناك اتفاق آخر على أن المنطقة العربية حتى قبل الأحداث الأخيرة لا تزال بعيدة جدا عن تحقيق هذه الأهداف الكبرى المنتظرة منها في ظل سائر المشروعات التي كانت قد قدمت، وأرجوا أن لا يغضب إخواني حين أقول: أنه حتى المشروع الإسلامي الذي نادينا به (الإسلام هو الحل) اكتشفنا أننا مع وجود الحل في الإسلام فإن عقولنا لا تزال قاصرة عن الوصول إليه، ولا تستطيع أن تجسده، أو نقدمه كبرنامج للأمة تتبناه، ولم يستطع هؤلاء أن يعيدوا النظر في برنامجهم ويسألوا أنفسهم لماذا لم يستطيعوا أن يحدثوا التغيير المطلوب في الأمة

---

[٦] أخرجة الإمام أحمد في المسند وأبو داود عن ثوبان على ما في الفتح الكبير (٣-٤٣٨).

ودفعها إلى تبني مشروع حضاري إسلامي كامل تستطيع أن تعود به إلى خيريتها ولماذا عجزوا عن تقديمه حتى الآن؟

مع أن هناك محاولات قد قامت بها بعض الفئات الإسلامية وبعض الأشخاص لسد هذه الثغرات ولكن لم يستطع ذلك أن يأخذ المطلوب ليتحول إلى مشروع للأمة تتبناه ولم يستطع هؤلاء أن يعيدوا النظر في برنامجهم ويسألوا أنفسهم لماذا لم يستطيعوا أن يحدثوا التغيير المطلوب في الأمة ودفعها إلى تبني مشروع حضاري إسلامي كامل تستطيع أن تعود به إلى خيريتها.

لقد كشفت كارثة الخليج الأخيرة سائر عورات هذه الأمة ... عورات أنظمتها وشعوبها وأحزابها وهيئاتها ومفكريها وعلمائها وأطروحاتها الفكرية ومشاريعها الحضارية؛ نعم سقطت سائر أوراق التوت –كما يقولون- وإذا كان في هذا الأمر آثارة من خير فهي في كشف سوءاتنا لنا، هذه السوءات التي كان يغطيها الضجيج العالي برقم المسلمين الذي جاوز المليار منذ سنوات، وصحوة المسلمين التي أصبحت حديث الخاص والعام، وصحوة الإسلام السياسي، والإسلام الاقتصادي، والبديل الإسلامي وغير ذلك. كل هذه الأصوات تبين أنها لا تعبر عن حقائق –لقد استطاع أعداء الأمة أن يجمعوا أعواد هذه الأمة عودا عودا، وأن يختبروا مقوماتها واحدا بعد آخر ليتأكدوا في المرحلة الأخيرة- وهي أزمة الخليج إن ذلك الأسد الإسلامي- الذي كانوا يخافون ليس أكثر من جلد أسد محشو بقش ومواد محنطة، فقد حقيقته من زمن بعيد، لم يعد لدى المسلمين من الإسلام إلا رسومه وأشكاله، وأن جهودهم –أعني الغربيين- التي بدأت من منتصف القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) قد أتت أكلها ونضجت ثمارها، وقضت على الحقيقة الإسلامية التي كانت تحرك هذه الأمة وتتحرك بها. فالرابطة الإسلاميه قد أبيدت وتم القضاء عليها، وأصبحت جسدا بلا روح، ووقعت شهادة وفاتها يوم تطوع العراق بقيادة حزب (البعث العربي الاشتراكي) للقضاء على الثورة الإسلامية في إيران نيابة عن العالم الغربي وأصدقائه، ودفاعا عن الحضارة الغربية المعاصرة وقيامها!! فخاض حربا ضروسا جاوزت ثماني سنوات ساندته

فيها أموال الخليج وشعوبه وأريق فيها من دماء الشعبين وأموالهما وأموال جيرانهما ما جاوز ما أريق وما أنفق من دماء وأموال سائر الشعوب التي شاركت في الحرب العالمية الثانية.

وبمجرد أن توقفت الحرب بين حزب البعث وإيران وأعلنت شهادة وفاة الأخوة الإسلامية، بدأت التحضيرات لحرب تعلن شهادة وفاة بقايا القيم الإسلامية التي تتعلق بالوحدة والولاء والبراء والجوار وكذلك قيم العربوبه والوطنية والعشائرية وحتى الحزبية، والإنسانية العادية.

والغريب أن هذه العمليات الصراعية —في الأونه الأخيرة– لم تقتصر على الحكام وحدهم، ولكن هناك جهود بذلت ولا تزال تبذل لتحويلها إلى معارك وأحقاد وكراهية دائمة راسخة بين الشعوب وبين الأحزاب وبين القوى المختلفة.

ولعل الأنكى والأمر أن كثيرا من الفتن السابقة لم تستطع أن تستدرج منظومة القيم اللاإسلامية إلى ساحة الصراع، ولكن الفتنة الكبرى قد تجاوزت مداها كلها لتستدرج القيم الإسلامية في الأخوة والعدل والتحرر والولاء والبراء والجهاد وغيرها إلى ساحة الصراع فتحول إلى أجزاء نسبية في أحجار الصراع وأسلحة المتصارعين ولم يستطع حراس القيم الإسلامية من علماء وحركات وفئات إسلامية وغير رسمية أن ينأوا بأنفسهم وبالقيم التي يمثلونها ويدعون إليها عن ساحة الصراع فيحفظونها نقية ثابتة منزهة عن التوظيف السياسي والحزبي الرخيص لعل الأمة تستطيع أن تحفظها في ضمائرها لتعود إلى نقاءها وصفاءها ونورها وهدايتها أن ينجلي الغبار، ويبدأ البحث عمن يقيل العثار.

لقد مثلت هذه الكارثة الأخيرة انهيار مفهوم الأمة الإسلامية بكل المقاييس انهيارا حول المنطقة العربية خاصة من دار السلام إلى جحيم للجميع، فالتوتر دائم، والصدام مستمر، والنزاعات لا حل لها، وليس هناك وسيلة للاتصال بين العرب إلا العنف في كل أشكاله، إنها الفتن التي تجعل الحليم حيران.

ولكن ما هو سبيل الخلاص؟ لا أزعم لنفسي أن لدي مشروعا أتقدم به ولا أظن أن ذلك مطلوب مني الآن، لكن ما نريد أن ننبه إليه الآن هو أن نتعلم كيف نصوغ مشاكلنا بصورة أسئلة تجعلها تلح على عقولنا، وتستدعي وتستجيش كل ما لدينا من طاقة للتفكير،

وللتأمل، والتدبر، والحوار المشترك بين فصائل الأمة كافة، علنا نصل –معا– إلى بعض الإجابات عن هذه الأسئلة:

-أين الخلل في مشروع نهضة هذه الأمة أو مشاريع النهضة التي عرضت، وما هو؟ كفانا تلاوما وكفانا مزايدات من بعضنا البعض في سبيل الكسب الحزبي أو الفئوي أو القطري، وكفانا تكفيرا وتبديعا أو تفسيقا ولنتجه بشكل مباشر إلى مشكلاتنا من خلال تلك الأطروحات التي سلخنا ما يزيد عن القرن ونحن نرددها دون أن نحقق شيئا، ولنحاول أن نبحث للتساؤلات عن جواب.

لقد اعتبر الكتاب المنسوبون إلى الفصيل –منا– أن بداية– عهد النهضة الأخيرة هي احتكاك فرنسا بمصر أثناء الغزو الفرنسي النابليوني (عام ١٧٩٨) هل هذا صحيح؟ هل من الممكن القول بأن المشروع النهضوي ما بدأ إلا بعد الغزو الفرنسي وإن الأمة المسلمة كانت أمة جاهلة غبية لم تعرف النهضة إلا حين دخل عليها مستعمر غاز، فبدأت تتعرض للحضارة. وهل يمثل الاستعمار والاستكبار رسالة حضارية ومتى، وكيف، ومن هو المستعمر الذي مثل هذا؟ هل يمكن أن نعتبر ذلك مجرد تحد استفز في أمتنا بقايا الحس الحضاري؟ وكيف ولماذا ولما لم توفق الأمة في أي أجزائها إلى تحقيق شيء من هذه الأهداف كما حقق اليهود –مثلا– كيانهم؟

ما أثر مفاهيم الحداثة والتقدم والنهضة وفق النموذج الغربي في الحالة التي نعيشها اليوم؟ وكيف نخرج من حالة التبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية للغرب؟

-كيف نتخلص من الاستبداد السياسي وحكم الفرد الذي أصبح يهدد كل مقوماتنا؟ أى استبداد كان وأي فرد كان سواء سمي رئيسا أو حاكما أو أميرا أو سلطانا أو رفيقا أو أخا، وهل لدينا تصور أو برنامج للخروج من إطار الاستبداد السياسي وغيره؟

الله –سبحانه وتعالى– يقول: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ **(العلق:٦–٧)** وأسوق هنا بعض ما قال المرحوم سيد قطب في حق فرعون عندما قال: ﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ **(النازعات:٢٤)** قال سيد (قالها الطاغية مخدوعا بغفلة جماهيره وإذعانها وانقيادها فما يخدع الطغاة شيء مثلما تخدعهم غفلة الجماهير، وذلتها، وطاعتها،

وانقيادها، وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطان، إنما هي الجماهير الغافلة الذلول تمد لها ظهرها فيركب، وتمد لها أعناقها فينحر، وتحني له رؤوسها فيستعلي، وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى، والجماهير تغفل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم، فالطاغية وهو فرد لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين لو أنها شاركت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها، وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئا. ولا يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدا. ولا يمكن أن يطغى في أمة رشيدة أبدا، ولا يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها، وتؤمن به، وتأبى أن تكون تبعا لواحد من خلقه لا يملك لها ضرا ولا رشدا.

فأما فرعون فقد وجد في قومه من الغفلة والذلة وخواء القلب من الإيمان ما جرء به على قول هذه الكلمة الفاجرة الكافرة ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ وما كان يقولها أبدا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء وإن يسلبه الذباب شيئا لا يستنقذه منه. واستخفاف الطغاة بالجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنها الحقائق حتى يعلموها النسيان، ولا يعودون يبحثون عنها، ويلقون في روعها ما يشاؤون من المؤثرات، حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفاف الطغاة بها، ويلين قيادها لهم فيذهبون بها ذات اليمن وذات الشمال مطمئنين)[٧].

وها هي اليوم وقد مردت على الذل واستنامت للطغاة تنتقل من سيئ إلى أسوأ ومن خراب إلى دمار، ويسير بها الطغاة ذات اليمين وذات الشمال يرونها الأبيض أسود والأسود أبيض ولسان حال كل منهم يقول: ﴿ ... **مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ **(غافر: ٢٩)**.

[٧] إن بين ما قاله السيد الأفغاني وما قاله سيد قطب عليهما رحمة الله ما يقرب من قرن.

وها هم الأمة المضلون يقودون هذه الأمة من حرب الأخ إلى سفك دم الشقيق إلى هتك عرض الإبنة واستباحة حرمات الأم ... يسفكون دماءهم ويخرجون أنفسم من ديارهم، ويتظاهرون على الإثم والعدوان ومعصية الرسول -ﷺ، والأمة حيرى تلتمس الهداية فلا تجدها، فالقراء ضلوا وتوزعهم الحكام، ومصادر الهداية قد تراكم عليها من التراث وأفكاره ما حجب عن الأمة فهمها وحال بينها وبين الوصول إلى النور الذي تشتمل عليه والهداية الكامنة فيها وقيادات الأمة القيادية والحزبية لا تزال سادرة فيما هي فيه متشبثة بشعاراتها وأطروحاتها وتوازناتها التنظيمية والإقليمية، تنسب أسباب الفشل إلى الخارج، وترفض مراجعة الداخل، وإذا راجعت فإنها المراجعة السطحية العابرة التي تستهدف أول ما تستهدف الدفاع عن الذات وتبرئتها ونسبة الفشل وأسبابه إلى الخارج أي خارج كان فإن لم تجد خارجا تنسب إليه فشلها ففي الإحالة على الأقدار والظروف أو الغيب مناص!!

النقطة السابعة:

إن هزيمة حزيران ١٩٦٧ ميلادية كانت خطا فاصلا بين التكوين النظري والمنهجي القومي والإقليمي وسائر أطروحات التشطير للأمة الإسلامية، ولذلك بدأت الأمة بعدها تتخلى عن سائر الأطروحات الفكرية التي أفرزها الانهيار الحضاري والغلبة الحضارية للغرب في القرنين الأخيرين.

ولقد حاول حزب البعث أن يقوم بمحاولة أخيرة لتجربة الخليط المجتمع والمتبقي من تلك الأفكار ويجعل منها أطروحة نظرية ومنهجية بديلة تأخيرا للمد الإسلامي ووقوفا بوجهه، ولكن اثنين وعشرين سنة تجارب الحزب في العراق وسبعة وعشرين سنة من تجاربه في الشام لم يزيد الأمة إلا قناعة بفشل ذلك التكوين النظري والمنهجي الذين قام الحزب بشطريه عليهما، وإنه لن يكون بديلا أفضل رغم سائر محاولات الترقيع التي قام بها المنظرون، وحاولوا فيها تركيز سائر الأفكار القومية العربية وبقايا الماركسية اللينينية وبعض المشاعر الإسلامية والمذهبية ليشكلوا منها إطارا نظريا ومنهجيا لبعث الأمة من جديد، ولكن الحزب لم يلبث أن أعلن عجزه واستسلامه بل وتخليه عن أهم أهدافه: (الوحدة) حتي بين القطرين الذين تتحكم

في قيادتهما القيادات البعثية. ثم أعلن تخليه عن بقية أطروحاته حين أعلن رئيس النظام البعثي في العراق عن تبنيه للإسلام! وإعلانه بكل ما استطاع إن الإسلام هو الحل.

أما الشق الذي يحكم بلاد الشام فقد أعلن انضمامه إلى (الحلفاء) الذين قرروا قتال الرفاق البعثيين، انضم إليهم مع من كان تبرأ منهم من أعداء الأمس، ويضفي عليهم كل صفات العمالة، انضم إليهم بدوافع لا يعلمها إلا الله والراسخون.

إن ما بعد هزيمة (١٩٦٧) جعل الإسلاميين في الداخل العربي والإسلامي بديلا غير منازع في ضمير الأمة عن كل تلك الفصائل، ورشح أطروحة الإسلاميين: (الإسلام هو الحل) لتكون البديل عن سائر أطروحات من سبقهم، وبدأت الصفوف الإسلامية تشق طريقها نحو قيادة الأمة، وكان المؤمل والواجب أن يبادر العقل السليم إلى التقدم بمشروع إسلامي حضاري كامل تتبناه الحركات الإسلامية، وتتقدم به إلى الأمة لتفجر طاقاتها به وتستقطبها حوله لتحقيق أهداف الأمة الكبرى التي قصرت المشاريع الأخرى عن تحقيقها مثل الوحدة والتحرر الكامل في الأرض والفكر والعقل والثقافة، والإدارة والسيادة، وتحقيق العدل، والشورى، وكرامة الإنسان، وبناء القدرة الإسلامية وتجاوز حواجز التخلف ومعالجة آثاره في كل جوانب الحياة حتى إذا واتتها الفرصة في أي بلد استطاعت أن تبدأ فورا بتقديم برامجها ومشاريعها الحضارية لتلمس الأمة الفوارق بين الإسلاميين وسواهم وبين أطروحاتهم وأطروحات من عداهم، ودخل الإسلاميون البرلمانات في كل بلد استطاع حكامه أن يمنحوا محكوميهم شيئا من الحرية –دخلوا محمولين على أعناق الجماهير مؤيدين بكل إرادتهم وكان ذلك مؤشرا كافيا بأن الحريات السياسية سبيل الإسلاميين لتسلم زمام قيادة الأمة: فحمايتها وتكريسها والدعوة إليها وتحويلها إلى هدف سياسي من أهداف القوى الإسلامية يجب أن يصبح واحدا من دعائم بنائها وجزءا من مشروعها الحضاري.

وبدأ الإسلاميون يمارسون العمل السياسي وانتظر الناس مشاريعهم بلهفة ما بعدها لهفة فإذا بعامتهم لا يحملون معهم من المشاريع إلا ما كانوا يحملونه وهم دعاة يدعون الجماهير ويعظونها ويذكرونها بالواقع التاريخي الإسلامي الزاهر فإذا جاوزوا ذلك فإنهم يجاوزونه إلى ما عرف (بتطبيق الشريعة) في نظر الأكثرين يعني تطبيق الحدود والتعازير الشرعية على

أمل أن تطبيق ذلك سوف يرضي الله تعالى آنذاك سييسر الله –سبحانه وتعالى– معالجة سائر المشكلات ويخذل سائر الأعداء ويحقق جميع الآمال ولا شك أن الذي يحيي العظام وهي رميم قادر على كل شيء ولكنه جلت قدرته قد وضع لهذا الكون وهذه الحياة سننا منها سنة التدافع بين الناس لتمكين الدين ﴿... **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (**الحج: ٤٠**).

ومن سننه –جل شأنه– أنه ينزل للناس الدين ويرسل إليهم الرسل ويدعوهم إلى التدين به فهم الذين (أي الناس) يتلقونه ويتفهمونه ويفقهونه ويحولونه إلى سلوك ونظم ومناهج حياة سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية وقانونية وواقع يعيشه الناس بقناعتهم وإيمانهم ومن خلال فهمهم لأنفسهم والواقع ولسائر ما حولهم، ويتم ذلك بوسائلهم وشروطهم وأدواتهم وجدهم واجتهادهم وقدراتهم وبدون ذلك يبقى الدين محفوظا ولكن يختل التدين به أو يندثر.

والنصر والبركات ثمرات تدين حقيقي شامل كامل يتناول كل جوانب الحياة ويشكل الجانب القانوني واحدا منها، لا كلها، وتصحيح الاعتقاد وبناء الفكر وتكوين الثقافة تشكل المنطلقات الأساسية لتغيير ما بالنفس لتدور عجلة التحول نحو الأفضل بعد ذلك.

فكان الناس يتوقعون من القيادات والحركات الإسلامية أن تبادر إلى تعويض ما فات والتقدم بمشروعها الحضاري الإسلامي الكامل الذي يعني تنزيل الإسلام على واقع المسلمين وتحويله إلى نظم ومناهج بديلة تحدث عملية التحول الكامل في الأمة لتبدأ انطلاقتها وعالميتها الثانية وتستأنف حياتها الإسلامية فتبدأ النظم والحدود المصطنعة والهياكل الهالكة تتهاوى من أمامهم وتبدأ مرحلة العالمية الإسلامية الثانية والشهود الحضاري الإسلامي الجديد –الذي لن يشكل انقاذا للأمة الإسلامية وحدها، بل للبشرية عامة– البشرية التي تبحث بجد عن البديل الحضاري لهذه الحضارة المستبدة الطاغية التي سقط شقها اليساري سقوطا سريعا، وها هو شقها الغربي الآخر يبدأ ميلانه نحو السقوط معلنا فشله في معالجة المشكلات الاقتصادية ومشكلة الإنسان في الوريث القائم اليوم على حراسة هذه القيم الغربية

—أمريكا— التي قد لا يمر وقت طويل حتى يشهد العالم تراجعها كقوة أولى عظمى في العالم. ولكن الحركة الإسلامية العالمية لم تفعل ذلك ولم تحقق من آمال جماهير الأمة إلا القليل.

وإذا أرادت الحركة الإسلامية العالمية أن تحافظ على بقايا ثقة جماهير الأمة بها فلابد لها من استنفار جميع الطاقات الإسلامية العقليه والفكرية والثقافية وتجنيد الخبرات لرسم معالم المشروع الإسلامي البديل بأقرب وقت قبل أن تبدأ الجماهير مرحلة الإنصراف عن أبوابها. إن الزمن لا يتوقف وإن الجماهير لن تصبر طويلا والأحداث من حولها تتسارع والضغوط من كل جانب تزداد باحثة عن الحلول ومنتظرة للمعالجات الإسلامية الناجحة.

النقطة الثامنة:

أود أن لا أغادر هذه المنصة قبل أن أترك في أذهانكم الأسئلة التالية:

-ما هي المؤثرات والمقومات التي يمكن تحديدها لعوامل مشتركة يمكن أن تحملنا على التفاعل مع زملائنا في مواقعنا المختلفة لنبني مستقبلنا؟

-ما هي الدراسات المطلوبة لنصبح قادرين على فهم تلك المؤثرات والمقومات؟ وما مجالاتها؟

-ما هي البرامح التربوية والتعليمية التي نحتاجها لإيجاد الإنسان القادر على تمثل ذلك —كله— أي تنزيله على الواقع ؟

-ما هي المؤسسات الثقافية والتربوية والتعليمية التي لا بد من إقامتها لتحقيق ذلك الهدف؟

-ما هي علاقتنا بالآخر وكيف نميز بين العداء والتعامل والانفتاح والانغلاق، والانغلاق والاحتياط؟ وكيفية الاستفادة من الآخر وحدودها وفي أي المجالات تكون هذه الاستفادة؟ وكيف نبني شبكة اتصالنا الثقافية والحضارية؟

-كيف نعيد الجدية الحضارية لأمتنا؟

-ما هي الرؤية الحضارية الإسلامية، وكيف نرد الاعتبار لحضارتنا الإسلامية؟ وكيف نحولها من حقيقة تاريخية ماضية إلى حقيقة تاريخية معاصرة قابلة للتجديد واستعادة الفاعلية الحضارية للأمة؟

-كيف نعيد فاعلية التعامل إلى منابع الصياغة المعرفية والثقافية والحضارية والتجديد في بنائها العقلي والمنهجي؟

-كيف نقدم البدائل والحلول المناسبة التي تنسجم وطبيعة كل كيان اجتماعي حضاري؟

-كيف نوجد التناسق بين الكيانات الاجتماعية الحضارية الإسلامية، ونرتقي بها وفق خطة مدروسة حتى نتمكن من جمع الكيانات وتوحيدها سياسيا في زمن منتظر؟

-كيف نوظف عمليات فهم الواقع في جهود ترشيد الواقع والرقي به؟

-كيف نحقق الفاعلية في شعوبنا رغم كل المعوقات وكيف نزود طلائعنا الإسلامية بالأدوات والوسائل التحليلية التي تمكنهم من معالجة المسائل التنظيمية والأدائية التي تحقق تلك الفاعلية في الأمة؟

-كيف نزود طلائعنا الإسلامية بالقدرة اللازمة لفهم وتحليل الظواهر الاجتماعية والإنسانية وطرائق التعامل الإيجابي معها؟ وتجاوز موضع النظر الفاحص أو الوصف إلى موقع الناظر المرشد والخبير القادر الموجة؟

أما وقد انتهى الوقت المخصص لي فأستودعكم الله تعالى سائلا العلي القدير أن ينفعنا بما علمنا ويعلمنا ما ينفعنا وينير بالقرآن العظيم قلوبنا إنه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.